منهم من المجاورين فعلمنا من هذا أن أكابر مشايخنا ينشطوننا على الاشتغال بهذه العلوم لعلمهم اليقيني بدرجة استفادتنا منها ولا شك ان حضرة الاستاذ الشيخ محمد راضي البحراوي يوافقهم على هذا بعد زيادة التدقيق لان مقصود الجميع مصلحة الجميع

﴿أميل القرن التاسع عشر﴾

(٣٦) من هيلانه الى اراسم في ٤ اغسطس سنة ١٨٥

لا أزال أشعر في نفسي بكثرة الضعف حتى اني في تحرير هذا المكتوب اليك لم أستطع ان أكتبه مرة واحدة بل كنت أراوح فيه بين الكتابة والاستراحة عدة مرات. كنت لزمت الفراش اثني عشر يوما موافقة للعادة المتبعة في معظم جهات انكلترا والآن اصبحت قادرة على القيام والمشي في البيت قليلا وصرت مثلك أجيل ناظري وفكري واسيح بهما فيما حولي واني أجد لذة في حبسي لاني انوي به مشاركتك في حبسك

أيكون من الوهم ان أحسب ان أميل ما لبث ان عرفني؟ كلا فاني لا أجيز لنفسي مطلقا أن تعتقد اني لست في نظره (الا نديا مملوأ لبنا) على قول أحد العلماء على اني أعترف اعترافا قلبيا بان هذا المولود الضعيف الذي يكاد يكون جمادا محتاج الى ان يأخذ كثيرا من غيره ولا يكاد يعطي شيئا نعم ان لنا فيه قرة عين وانشراح صدر ولكنه ليس له في هذا اختيار فهو كالزهرة ترتاح لها النفس ويبتهج برؤيتها الناظر على غير ارادة منها ولا قصد ومهما كانت حاله ألست أنا اشد منه أثرة لاني انا المغتبطة بحبي اياه ثم اني كيف يسعني ان ارتاب فيما له من الاحساس الي فانه قد أعاد لي

سكينتي وكف عني ما كنت اجده من غربي ذلك ان خلقي ولا اخفي عليك قد خالطه من بضعة اشهر شيء من الحدة بسبب العزلة والاغتراب ومن هذا تعلم العلة في غضبي على جورجيا قبل الآن بأيام على أنها احسن النساء وأكثرهن التفاتا لواجبها وحقيقة الامر انها تستثقل القابلة ولا تطيق النظر اليها ويوجدها عليها اذ تراها قد استحقت نصيبا من شكري لانه من المفروض علينا ان نشكر من يخدمنا. فهذه الغيرة المنبعثة من قلب مخلص لم يستضيء بنور العلم هاجت غضبي عليها فلم استطع كظم غيظي ولا كف بوادر لساني في تلك الساعة فما كان أشدني اندهاشا وارتباعا اذ ذاك فاني لم أكد افرغ من تقريعها حتى ابصرت وجه أميل قد صار احمر كالارجوان وطفق يصرخ صراخا شديدا فلبيت شعري هل انفعالات الأم تؤثر في نفس الطفل فيكون بكاؤه وتغيره رجعا لصداها ؟ انا والحق اقول قد ملت من ذلك اليوم الى اعتقاد ذلك

وسواء كان هذا الاعتقاد صحيحا او فاسدا فقد عاهدت نفسي على ان اعتبر بهذه الواقعة واصبحت من الآن كلما عرض لي ما يكاد يذهب بحلمي انظر الى اميل فيسكن غضبي على الفور اجلالا لولدي واذا كنت قد صرت أحسن خلقا وأوسع صدرا وأملك لنفسي مما كنت قبل فليس ذلك الا بسببه وبيمن وجوده اه

(٣٢) من هيلانه الى ارلسم في ٥ اغسطس سنة ١٨٥٠

تلقى الدكتور وارنجتون مكتوبك[١] واطلعني عليه فرأيتك قد تجنيت على نفسك اذ قلت إنك ملوم على ما جلبه لي تعيس حظك من الخمول

(١) هذا المكتوب لم يعثر عليه

والذل وانك لست جديراً بان تكون والداً . رويداً هوّن عليك الخطب فاني من عهد ان جمعتنا عقدة النكاح كنت راضية بكل ما وقع لنا فهل كان ذلك مني كما تقول ناشئاً من شرف نفسي أو من رعاية واجبي كلا بل كان سببه ما في قلبي لك من صادق الحب وخالص الود فمن الجبن والعار ان تأسى اليوم على ما قد كان أنا لست أشكو أبداً ما ابتلينا به من الشدائد والمحن بل اني أزهى بها وأفتخر باحتمالها . أما ولدنا فقد آن لنا على ما أرى ان نشرع في تربيته فما هي التربية ومتى تبتدىء ومتى تنتهي ؟ أنا في انتظار جوابك عن ذلك . اهـ

حاشية ـ أميل مستغرق في نومه وقد قبلته قبلتين في وجنتيه حباً لك . اهـ

﴿ الباب الثاني ﴾

(الولد)

(١) من اراسم الى هيلانه في ١٠ أغسطس سنة ١٨٥

تسألينني في خاتمة رسالتك الاخيرة عن التربية متى يكون ابتداؤها فأقول

يصح ان يبتدأ فيها قبل الولادة بزمن طويل (*) لانه من المحقق الذي لا مساغ للريب فيه ان في أجيال البشر أنواعا من الاستعداد الوراثي تنتقل من الآباء الى الابناء فابن المتوحش يولد متوحشا وولد البربري يخلق بربريا ومن كان من أبوين متمدنين فانه يولد مهيأ للتمدن

(*) المنار ـ قلنا في الجزء الاول من المجلد الثاني ان التربية يبتدأ فيها من ابتداء الحمل وهذا هو المعقول الموافق لتعريف التربية الذي يقارب ما قلناه فيه هناك ما يقوله هنا وزعم بعض الجاهلين ان الافرنج يقولون يبتدىء بالتربية في السنة السابعة للولد

من ذا الذي لا يرى في هذا ان هناك قوى سابقة خلق الحياة في الانسان تحدد لكل فرد من أفراده درجة ملكاته ومقدارها نوعاً من التحديد؟ ان ما نسميه بالتصورات الغريزية والقوى الحاسية والمواهب الخلقية والفيض الخفي قد لا يكون شيئاً آخر سوى ما نتوارثه من حالة الجمران أعني نتيجة عمل العقل في من سبقنا من القرون فنحن الراجعون الى الدنيا بعد الفناء كما تقولين

ان ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم في احدى مثاني مخنا على غير علم منا وتنقل الملذة الحية من قرن الى قرن مرتقية على الدوام في صورها بعمل العقل وخروج المولود من غيابة الرحم الى عالم الشهادة باعضاء كاملها التقدم وسواها الترقي جميع هذه الامور يغلب على ظني انها من أسباب النمو التي يصح ملاحظتها في التربية ولكن لما كانت عزائمنا ليس لها على مثل هذه الاسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها

لكن هناك أحوالا طبيعية يتأتى للعلم فيما أعتقد ان يتناولها ويغيرها خلافا الاسباب المذكورة فأي مانع يمنع المشتغلين بعلم وظائف الاعضاء مثلا ان يصلوا يوما ما الى تحديد ما لسن الرجل والمرأة وحالتهما الصحيحة وطريقتهما الغذائية من التأثير في التناسل؟ وقد وجه فريق من نابغي هذا العلم الدائمي الصيت انظارهم الى هذه الغاية واعملوا أفكارهم في سبيل الوصول اليها فاذا أدركوها وتقرر انها اصبحت من ثمراته صار علم وظائف الاعضاء فرعا من فروع علم التربية النفسية

اذا علمت مما تقدم انه من الصعب جدا تحديد الزمن الذي تبتدئ

فيه التربية اتضح لك ان تعيين الوقت الذي تنتهي فيه اصعب واكثر مجازفة لانها تستغرق العمر كله

أما حقيقة التربية وهي أول شيء تسألين عنه فلي ان اجيبك عنها جوابا سديدا وهو : إنها على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية اللغوي عبارة عن تكميل عقل الناشيء وتهذيب نفسه باظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد وانواع القوى وانمائها لان ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أي زاد وانما لكني خشية ان تخالي في هذا التعريف ابهاما اعجل بكشف معناه وتقريبه الى ذهنك فأقول

اراد جمهور علماء الاخلاق بالتربية الوصول الى ما تصوروه في الانسان من معنى الكمال فغرضهم منها ايجاد الانسان الكامل وهو غرض يظهر لاول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة فللقائل ان يقول ان الانسان الكامل ليس هو الا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخارجي قطعا فنحن اذن نحلم به كل على حسب تصوره فايانا والتشبث بهذه الصور الوهمية التي يريد بها الخيال ان يتغلب على الواقع المحقق . فانه لا شيء ابعد علينا من تخيل ذات عاقلة ونعتها بآلاف من من نعوت الكمال حتى تكون نموذجا لجميع الفضائل ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وابرازها لنا الى عالم الظهور

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيها لو ان الانسان كان ذاتا واجبة الوجود لكنه في الحقيقة تراه على خلاف ذلك متغيرا لا يستقر على حالة واحدة فانه وهو في الرحم تتناوبه اطوار جنينية مختلفة ولا اريد ان أبين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث وانما اقول ان حياته من اولها الى

آخرها ليست الا سلسلة استحالات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأ. ألم تنظري الى شعره (الذي لا يوجد عادة عند الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات والى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف انها تتجدد كلما كبر؟ تأملي في الغلام الصغير عندما تبتدئ ثنايا الليونة في الزوال تجيده قد صار شيخا بالنسبة الى ابن الرابعة او الخامسة الذي لا تزال لثته خلاة بجميع لآلئها. فقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية في دور نموها اعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها واعدّ لها أعضاء أخرى تنمو في هذه المدة لتخلف الاولى. كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضا على نظام محدود فان المولود يذوق قبل أن يبصر ويبصر قبل ان يسمع والذاكرة فيه تسبق القوة الحاكمة ووجدانه يكون قبل فكره بزمن طويل فالحياة من الولادة الى الشيبة ومن الشيبة الى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب ويحيي بعضها بفناء بعض والانسان من مهده الى لحده يسلك طريقاً تفرق فيه رفاته وبددت في جوانبه بقاياه

أنى يكون لنا بعد ذلك موقف في هذه الحركة الدائمة وكيف السبيل الى غاية ننتهي اليها؟ فالذي اراه هو ان لكل يوم ما فيه وان اهم ما تلزم به العناية في علم التربية هو اختيار ما يناسب كل سن من انفع طرق النمو وامثلها وحينئذ فانا الآن اقتصر على الكلام عن التربية في زمن الطفولية. اهـ

آثار علمية ادبية

(جميع الكتب النافعة) ان علامة اللغة والادب الاستاذ الشيخ محمد محمود ابن التلاميذ التركزي الشنقيطي الشهير قد جمع في رحلاته واسفاره في الاقطار كتبا